أساس الحضارة الإسلامية الحديثة

بقلم عبد العزيز أمين عبد المجيد :
عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

الحضارة المصرية الحديثة وهل تبنى على أساس فرعونى أو عربى : —

لكى نستطيع أن نعطى حكما قاطعاً فى قضيتنا التى هى موضوع بحثنا اليوم ، يجب أن نفهم أولا - كما يقول المنطقيون - مدلول العبارة ، ثم نحلل المقدمات ونتتبعها حتى نصل إلى النتيجة الصحيحة .

وإذا فعلينا أن نعرف أولا المقصود بالحضارة ، وما هى الحضارة المصرية الحديثة ، وما هو الأساس الفرعونى الذى يصح أن تبنى عليه هذه الحضارة ، وهل هناك حضارة فرعونية حية ، وما هو مقدار حيويتها ، وما هو المقصود بالحضارة العربية التى نريد أن نجعلها أساسا لحضارتنا الحديثة ، وهل لنا حق الاختيار والتقرير ، أو هذا شىء فرضه علينا التاريخ والاجتماع ، وهل نستطيع أن نبنى على غير هذين الأساسين إن أردنا ؟؟ .

أخشى أن تشعر روح هذه الأسئلة بشىء من الجرأة فى البحث ، أو التطرف فى التفكير ، ولكنها أسئلة ضرورية لمعالجة موضوع كهذا .

كل منا يعرف المعنى العام لكلمة الحضارة ، ولكنى لست واثقا من أن كلا منا يستطيع أن يذكر بالضبط مدلول الحضارة وحدها ، والحضارة كغيرها من المعنويات شىء يمكن إدراكه ، ولا يسهل حده ، ولكى نلمس صحة هذه الدعوى ندع كلا منكم الآن يسائل نفسه السؤال الآتى :

ما هو بالضبط المقصود بالحضارة ؟

لا أظن أن كثيرا من الأجوبة سيكون مقنعا ، أو جامعا مانعا ، ولكن يمكن أن يقال إن كلا منا قانع بما يعرفه عن مدلول كلمة الحضارة .

ولم كل هذا؟ أليست الحضارة ضد الهمجية ؟ ولكن ماهى الهمجية ؟ أو بعبارة أخرى من هو الرجل المتحضر ؟ وماهى مميزاته ؟ وكيف نفرق بينه وبين الرجل الهمجى ؟ أبمظهره ومنظره ؟ أم بطريقة تفكيره وتصرفه ، ونظام حياته ، ودرجة معرفته ؟

وهنا يصح أن أشير إلى مناقشة جرت بينى وبين أحد الزملاء لأول مرة حول هذا الموضوع[1] . ذكر لى أنه يشرح كلمة الحضارة بما تدل عليه كلمة Culture الإنجليزية ، وأن مدلول هذه الكلمة الأخيرة يشمل ثلاثة عوامل جوهرية : هى العامل اللغوى ، والعامل الدينى ، والعامل الخلقى بمعنى أوسع ، وأثر هذه العوامل فى حياة النوع الانسانى .

وبعد أن أخذت المناقشة مجراها العلمى واللغوى اتفقنا على اقتراح أبديته له ، وهو أن تكون الكلمة العربية المقابلة لكلمة (Culture) هى كلمة (ثقافة) . وأن كلمة الحضارة أو المدنية هي ترجمة الكلمة الانجليزية Ci lis ation

وعلى هذا الأساس قابلنى هو بعد أن أعلن موضوع محاضرتى ، وذكر بأن الأولى بناء على هذه المناقشة الماضية أن يكون عنوان المحاضرة (الحضارة المصرية الحديثة وهل تبنى على ثقافة فرعونية أو عربية ؟) غير أننى رغبت أن أتناول الموضوع كما ذكر عنوانه فى مطلع المحاضرة ؛ ليتسنى لى أن أتعرض لمدلول الكلمتين : حضارة وثقافة ، خلال حديثى .

وفى اعتقادى أن أحداً لم يحاول فى اللغة العربية التفرقة بين الثقافة والحضارة . فالأدباء والمؤرخون يقولون : الثقافة الإسلامية ويعنون الحضارة الإسلامية أو العكس . وفى اللغة الإنجليزية لا يوجد فرق بين الثقافة والحضارة ، وإنما يوجد هذا الفرق فى اللغة الألمانية . فالثقافة فى الألمانية تشمل الآداب والفلسفة بما فيهما من علوم الاجتماع والأخلاق وهى كلمة Kultnr . وأما الحضارة فتعلق بالماديات كالطب والموسيقى ، ونظام الحكم العملى ، وترقية طرق المواصلات وتنظيم الرى ، وفن العمارة ، ونظام الجندية ، وما إلى ذلك ، وهى كلمة Civislisation

(١) هو الأستاذ محمد خلف الله أحمد

ويظهر لى أن اللغة العربية تحتمل هذه التفرقة ، فإننا نقول : رجل مثقف ونعنى بذلك أنه قد نال قسطا وافراً من الدراسة الأدبية ، وعلى صلة بالفلسفة وعلوم الاجتماع والأخلاق ، وإن كان لا يعرف شيئا عن تركيب الماء ، ولا خواص المغناطيسية ، ولا حساب المثلثات .

كما إننا نقول ، أمة متحضرة ، إذا كان نظام الحكم فيها ، ومستوى الحياة الاجتماعية والمعاشية قد وصلا إلى درجة تكفل للفرد الراحة ، والأمن والسعادة النسبية .

وقد يكون من السهل أن نصف الرجل بأنه متحضر بمجرد رؤيته ، ومن غير اختبار لمعارفه العلمية أو الاجتماعية ، ولكننا حينما نصف رجلا بأنه مثقف ، نبنى هذا الوصف على معرفتنا لصفاته العقلية والاجتماعية والخلقية . وكل رجل مثقف متحضر ، وليس بالطبع كل متحضر مثقفا ، وحضارة الأمة ليست نتيجة لثقافة كل فرد من أفرادها ؛ وإنما هى أشبه بذلك الضوء الذى تراه قد ملأ فراغ الحجرة ، ولكن له مصدراً أو مصادر معينة . هذه المصادر التى تنبعث منها الحضارة كما ينبعث الضوء من مصادره ، هى المصادر المثقفة .

وإذاً فيمكننا أن نقول : إن الحضارة وليدة الثقافة ، وإن الحضارة يظهر أثرها فى الماديات . كما أن الثقافة تتسلط على المعنويات . ولا يمكن حدوث أى تغيير مادى من غير أن يسبقه تغيير معنوى . بمعنى أن كل تغيير فى مظهر الحضارة لابد أن يكون قد سبقه تغيير فى مظاهر الثقافة ، التى هى فى الواقع نصيب الخواص ، وليست نصيب كل فرد .

وقد توجد الثقافة ولكن فى دور الكمون « Latent » وفيها القدرة على الظهور ، وإبداء آثارها فى المجتمع حينما تتاح الفرصة المناسبة ، وتتهيأ الظروف لإبراز هذه الروح الثقافية فى صورة حضارة فى المجتمع .

فقد يكون فى شعب من الشعوب أفراد مثقفون ، لهم نظريات اجتماعية ، وآراء فلسفية وأدبية ، ولكن الشعب الذى يعيشون فيه ، ليس مستعدا لتلقى هذه الرسالة الثقافية وتحويلها إلى حضارة ، وإذاً تظل هذه الثقافة سجينة فى نفس

صاحبها حتى يموت فتموت معه ، أو ربما أودعها بطون الكتب . فاكتشفها أهل الأجيال المقبلة ، واستغلوها فى ميدان الحضارة . ومثل هذا مثل التيار الكهربائى فى السلك المسلط على المصباح ؛ هذا التيار الكهربائى لا يمكن أن يظهر أثره فى الإضاءة ، إلا إذا كان المصباح المتصل به فى حالة سلامة صالحة لتحويل هذه القوة الكهربائية إلى ضوء ساطع .

ومن هنا ينشأ الخطر من تضارب الثقافات فى أمة واحدة ، لم تصل بعد إلى حد النضوج الفكرى ، فتقرر أى الثقافات تتقبل . وإذا كان هذا التضارب متعادلا وقف تيار الحضارة فى هذه الأمة . وقاسى الشعب نتيجة هذا التضارب ، من غير نتيجة مباشرة ؛ كالمريض فى دور النقه . فهو بين قوتين : قوة الميكروب وقوة المناعة الطبيعية . وأيهما ينتصر كان له الظفر .

وتعارض الثقافات وعدم تجانسها فى أى أمة يستولى على دور من التاريخ ، يسمى دور الانتقال ، تعانى الأمم فى خلاله ما تعانى ، ويتوقف طول هذا الدور وقصره على تعادل قوتى الثقافتين ، أو قوة إحداهما وضعف الأخرى .

هذه المقدمة ضرورية لفهم الموضوع الذى بين أيدينا ، لأنها توضح لنا أن انتصار ثقافة ضد أخرى معناه إحياء حضارة ، وإضعاف أخرى ، أو تغلب عنصر حضارى على عنصر آخر .

نعود إذاً إلى القضية فنرى أمامنا أساسين : الأساس العربى ، والأساس الفرعونى .

ولكن دعنا نختبر - أولا - كلا من هذين الأساسين على حدة ؛ ولكى نستطيع أن نصل إلى نتيجة واضحة يصح أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

ما المقصود بالحضارة العربية ؟ أهى عربية جاهلية ، أم عربية إسلامية ؟ وهل ما نسميه حضارة عربية هو ما أنتجته قرائح العرب المسلمين ، أو المسلمين غير العرب ، أو كليهما جميعا ؟

من الضرورى أن نعرف هذا أو لا وقبل كل شىء ؛ لأن أخذ الأشياء على ظواهرها قد يقود إلى نتائج غير سليمة .

لم يكن للعرب قبل الإسلام حضارة الفرس ، ولا مدنية الرومان ، ولا

فلسفة اليونان . ولم تكن عوامل الثقافة بينهم قد تمت - اللهم إلا الشعر الذى أنتجوا فيه مالم تنتجه أى أمة من قبل من حيث الكم - وما كان عندهم من علوم كعلم النجوم أو التنجيم هو مستعار من الكلدانيين أو البابليين ، ولم يكن حينئذ علما ثابت القواعد ، وإنما هو نتيجة التجربة والتخمين ، وكانت عندهم علوم أخرى هى إنتاج البادية كالكهانة والعرافة والقيافة ، وليس صحيحا أن تسمى هذه علوما ، وقد عرفوا شيئا من الطب نقلوه عن الكلدانيين ، وكانت عندهم طريقتان للتطبيب : طريقة الكهان والعرافين ، وطريقة العلاج الحقيقية . فالكهان كانوا يعالجون بالرقى والسحر ، أو بذبح الذبائح فى الكعبة ، والدعاء فيها أو بالتعزيم . أما المعالجة العقارية ، فكانت بتعاطى بعض المواد كالعسل ، أو بالجراحة كالحجامة والكى ، أو بتر بعض الأعضاء .

وكان علم الأنساب موضع عنايتهم ؛ لحرصهم على الانتماء إلى قبائلهم ، والمحافظة على شرف القبيلة ، لأن نظام القبيلة كان أساس النظام الاجتماعى عندهم .

وإلى أن جاء الإسلام لم يكن العرب مصدرا للحضارة ، كما كان اليونان والرومان والفرس والهنود ، ولم تكن لهم فلسفة اجتماعية راقية . ولم تمهد لهم عيشتهم الصحراوية أن ينتجوا فى غير ميدان الشعر .

فلما جاء الإسلام وثبتت قواعده فى أيام الخلفاء استتبع التوسع فى نظام الحكم ، واتساع النفوذ الإسلامى وجود علوم أخرى ، كعلم الحديث ، والقراءات ، والتفسير والنحو . غير أننا نلاحظ أن كثيرا ممن عنوا بهذه العلوم ، كانوا من غير العرب : فوهب بن منبه من أقدم رواة الحديث ، وأصحاب التفسير وهو فارسى الأصل . ونافع القارىء ديلمى . ومن أكبر الفقهاء وأقدمهم الحسن بن الحسن ، ومحمد بن سيرين . وعطاء بن رباح ، ومجاهد وسعيد ابن جبير ، وسليمان بن يسار ، وكلهم من الموالى أى غير العرب .

وكذلك الحال فى علوم اللغة ، فإننا نجد أن معظم الذين اشتغلوا بها كانوا من العجم : كحماد الراوية وهو ديلمى ، والخليل وسيبويه والأخفش والعباس والزجاج وغيرهم من الفرس .

أما العلوم الدخيلة: وهي الفلسفة والمنطق والرياضيات. فالمشتغلون بها للعرب هم من غير العرب وغير المسلمين - هذا طبعا في بدء الإسلام - لأن العباسيين لما أرادوا نقل كتب اليونان والفرس والهنود إلى العربية اتخذوا عارفي هذه الألسنة من الكلدان والسريان والفرس وغيرهم لنقلها، وأكثرهم من غير المسلمين.

وكلنا يعرف عناية المنصور بترجمة كتب النجوم؛ بوساطة نوبخت المنجم الفارسي، وقد كان مجوسيا وأسلم على يديه. والمنجم علي بن عيسى الأسطرلابي. كما أمر بترجمة بعض كتب الطب من اليونانية والسريانية على يد جورجيس بن بختيشوع السرياني، وحذا المهدي والرشيد حذو المنصور، فأصبحت بغداد مركزا للعلوم الدخيلة التي يقوم بدراستها الأطباء والعلماء من السريان والفرس والهنود المسلمين وغير المسلمين، وشجع المأمون الفلسفة والمنطق، وهما علمان يونانيان، وأمر المأمون أيضاً بنقل فلسفة أرسطو، وفلسفة أفلاطون الجديدة.

وكان السريان في كل هذه الأدوار هم المترجمين والمشتغلين بالعلم والفلسفة والطب. كما شاركهم في هذا الفرس والهنود ثم العرب أخيرا.

وإليك أشهر نقلة العلم في العصر العباسي:

(١) آل بختيشوع وهم من السريان النساطرة. وقد ولى الرشيد ابن بختيشوع رياسة الأطباء، وخلفه فيها ابنه جبريل.

(٢) آل حنين وهم من نصارى الحيرة.

(٣) حبيش بن الحسن الدمشقي، وهو ابن أخت حنين بن اسحاق.

(٤) قسطا بن لوقا البعلبكي، وهو من نصارى الشام، وكان طبيبا حاذقا.

(٥) آل ماسرجويه وهم يهوديو المذهب.

(٦) يحيى بن البطريق.

(٧) ابن المقفع.

(٨) آل نوبخت.

وغير هؤلاء كثيرون ممن خدموا في الدولة العباسية، وقد كانوا قادة الثقافة

فى أول الفتح الإسلامى ، ومن مترجماتهم : كتاب السياسة الذى نقله حنين بن إسحاق ، وكتاب المناسبات ونقله يحيى بن عدى ، وكتاب أصول الهندسة وترجمه قسطا بن لوقا ، وكتاب البرهان والجدل فى المنطق ، ونقله من اليونانية إسحاق بن حنين ، وكتاب عهد أبقراط ، وكتاب طبيعة الإنسان ، وكتاب إقليدس فى الهندسة ، وكتاب أرشميدس ، وكتاب فلسفة أفلاطون ، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة . كما ترجم الفرس كثيرا من المؤلفات القيمة ، ككتاب كليلة ودمنة ، وكتاب مزدك ، والتاج فى سيرة أنو شروان ، والأدب الكبير ، والأدب الصغير .

وليس المقام هنا مقام حصر الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وإنما نريد أن نقرر حقيقة ، وهى أن الذين قاموا بالحركة العلمية والثقافية فى بدء الفتح الإسلامى كانوا من غير العرب ، ومن غير المسلمين أيضاً ، وأنهم نقلوا إلى العربية ما لم يعرفه العرب من قبل .

على أن هذا ليس من الأمر فى شىء ، فكما قلت فى مطلع المحاضرة : إن للثقافة قوة معنوية قد تكون كامنة فى نفوس أصحابها تترقب الفرصة المتاحة ، والظروف المناسبة ؛ لتظهر أثرها ، وتعبر عن وجودها .

والعرب قاموا بالدعوة للإسلام ، وفتحوا الفتوح ، وهم أهل بادية أميون ، فانصرف همهم فى بدء الدعوة إلى نشر الدين ، وإنشاء دولتهم مما لا يحتاج إلى علم ، وإنما كانت حاجتهم من العلم إلى القرآن الكريم ، يدعون الناس به إلى الإسلام . ولم يمض على ظهور الدعوة بضع وعشرون سنة ، حتى فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس وإفريقية وغيرها . والمسلمون العرب يومئذ هم الجند الفاتح ، وكانوا قليلين بالنظر إلى ذلك الملك الواسع ، فضلا عمن قتل منهم فى الحروب والفتن ، فأصبح همهم الاشتغال بالسياسة فى الجند والحكومة ، ونظرا لفطرتهم الخيالية انصرفت قرائحهم إلى الاشتغال بالشعر والخطابة والأمثال — وهى آدابهم فى الجاهلية — ولما لم تكن لهم خبرة باللغات ، وكانوا شغوفين بمعرفة علوم غيرهم من الأمم وآدابها ، لم تكن هناك وسيلة غير تشجيع أولئك المترجمين ، وتقريبهم إليهم بالمناصب والعطايا ، حتى يؤدوا رسالتهم بأمانة وإخلاص ، وقد وجدت هذه العلوم المترجمة فى الثقافة العربية موطناً خصيباً فنمت وأينعت ثمارها

ورحبت عناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق كما ذكرنا بهذا النوع الجديد من الحضارات المختلفة ؛ فهضمت الثقافة العربية هذه الحضارات الغريبة ، وحولتها إلى الصورة التي تتفق وطبيعة العصر ، وروح الأمة الناهضة ، وصبغتها بصبغة مميزة لها هي الصبغة العربية .

ولا نريد أن نقول إن العرب استطاعوا أن ينقلوا جميع العلوم إلى لغتهم ، وإنما جاء العرب والعلوم مزهرة لدى اليونان والفرس والكلدان والهنود وغيرهم ، ممن دانوا لهم ، وأظلتهم راية الإسلام ، فأخذ العرب من علوم هؤلاء جميعا ؛ ولذلك كان من فضل الإسلام على التمدين أنه جمع شتات تلك العلوم من اليونانية والفارسية والهندية والكلدانية ، ونقلها إلى العربية وزاد فيها ، حتى نضج العلم على اختلاف فروعه ، وأثمر ، ونبغ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة في ظل الإسلام وظل العربية ، وهذا ما نقصده حينما نقول « الحضارة العربية » .

أما الحضارة الفرعونية فقد يكون من العبث أن نحاول هنا أن نعطي وصفا كافيا ، لما وصلت إليه من ارتقاء وسمو ، مما تقف أمامه الحضارات الحديثة باهتة متسائلة : ما هو السر السحري الذي استطاع به الفراعنة أن ينتجوا في فجر التاريخ هذه العظمة في الفن ؟ وكيف اهتدوا إلى هذا السر ، وأي خبرة كانت عندهم بقوانين العلم ، وقواعد الفن نسيها التاريخ فلم تصل إلينا ؟

ولكي أعالج موضوع الحضارة الفرعونية على النحو الذي اتبعته في معالجة موضوع الحضارة العربية ، أرى أن أبدأ بعناصر الثقافة الثلاثة : اللغة والدين والخلق .

وقد يكون غير ضروري هنا أن أتعرض للصورة التي كانت عليها لغتهم ، وكيف كانوا يتكلمون أو يكتبون ، أو لقواعد لغتهم وتراكيبها ، ولأن هذا ليس في طوقي . وإنما يهمنا أن نعرف أن لغة الفراعنة قد أصبحت لغة تاريخية ، بين اللغات ، تدرس لكشف مخلفات أصحابها العلمية والأدبية والعمرانية فقط . ولا يعرف المؤرخون الحديثون كيف كانت تنطق ، ولم يصل إلينا أي سجل تاريخي ، يرشدنا إلى مخارج الحروف ، وصنع العبارات عند قدماء المصريين . وإذاً فسواء أرضينا ، أم غضبنا لا مجال لإحياء لغة الفراعنة ؛ لكي تكون لغة

أدب ومحادثة ، ولكى تكون عنصرا من العناصر الثلاثة التى تبنى عليها الحضارة المصرية الحديثة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة الهيرغليفية كانت لغة أدب جم ، وفلسفة ، وعلم واسع ، تناولت الفلسفة السماوية ، والفلسفة الدنيوية ، ووصفت العاطفة والخيال والشئون اليومية العادية ، وفى هذا الموضوع يقول أحد المؤرخين المعاصرين من الفرنجة :

« لقد اتضح أخيرا فقط ، أن قدماء المصريين قد حفظوا لنا لغة ذات أدب دينى ودنيوى معا ، تلك اللغة التى سمت فى عبارتها وأسلوبها عما عهدناه فى كتاب الموتى ، لغة جديرة بأن تذكر بجوار اللغات العالمية الناضجة ، كالعربية والهندية . وقد حوت الهيرغليفية كثيرا من فروع الآداب ، كالأساطير العجيبة ، والرسالات العلمية ، والمناظرات الخلقية ، والمناجيات اللاهوتية ، وغير ذلك من الموضوعات الفكهة . »

ولا يتسع المجال هنا للإطناب فى وصف الأدب الفرعونى ، ولا للتعرض لنوعى الشعر والنثر ، وإنما اخترت القطعة الآتية ؛ لترينا نوع الخيال الشعرى لدى قدماء المصريين وسموه : —

« ها هى ذى محبوبتى بعيدة عنى ، بينى وبينها نهر ، والتمساح هناك منبسط على رمال الشط ، فعند ما أعبر النهر إليها أجدنى أمشى على الماء ، فيختلط الدم الناضح من قلبى بهذا الماء ، ويخيل الى أن الماء قد جمد ، وأصبح فى صلابة الأرض . إن هناك محبوبتى ، وهذا ما يلهمنى الشجاعة لعبور النهر ! لقد سحرت الماء ! أراها تدنو وأدنو أنا منها أيضا ، وذراعاى مبسوطتان لمعانقتها ، وقلبى يعود إلى موضعه حينما أحتضن محبوبتى . »

أما العنصر الثانى ، وأعنى العنصر الدينى فيظهر أن الديانات قد وصلت أسمى درجات الارتقاء فى العصر الحاضر ، ولذا فإننا نجد ديانات قدماء المصريين — بالرغم من أن تعاليمها كانت سامية — لا تتناسب مع التفكير البشرى الحاضر . ولا يحاول العقل الإنسانى إحياءها ، وإذاً ، فقد محا التاريخ هذا العنصر الثقافى ، واستعاض عنه الديانات السماوية المعروفة الآن ، والتى يكون كل منها عنصراً جوهريا فى الحضارات الحديثة .

أما العنصر الثالث وهو العنصر الخلقي، فقد كان ولا يزال تابعا للعامل الديني، ونتيجة للتقاليد وللعرف الزماني والمكاني، فالأخلاق هي في الواقع وليدة الديانات والتقاليد، ولذلك نرى عادات قدماء المصريين مرتبطة بتعاليمهم الدينية؛ فمن المعروف مثلا، أن قدماء المصريين، كانوا مغرمين بالرقص والشرب، والغناء والموسيقى. وكانوا يعتقدون في الخرافات، والسحر، وكان الرق عندهم مباحا، ولم تكن الرعية في نظر الملوك إلا عبيدا وخدماً، وقد أباحوا أيضا تعدد الزوجات من غير قيد، كما يزعم بعض المؤرخين أنهم أباحوا زواج الأخوات.

وعلى أية حال فالمقصود بالعنصر الخلقي ما يسمى بالانجليزية Moral outbook ويدخل ضمن هذا أيضاً The moral and ethical standa d

والتاريخ والاجتماع يؤيدان أن هذا العنصر الثالث من عناصر الثقافة، لم يصل إلينا من قدماء المصريين سالما خالياً من كل دخيل؛ لأننا نعرف أن زوال الحضارة الفرعونية، وزوال دولة الفراعنة، وتتابع الحكم الأجنبي على مصر، وتقبل الشعب لصور مختلفة من الحضارات الغريبة ـ كل هذا قضى على العنصر الثالث من عناصر الثقافة الفرعونية.

غير أن الحضارة المادية ـ حضارة الفراعنة ـ وإن كانت قد دفنت؛ وظلت في طوايا النسيان عشرات القرون ثم اكتشفت، فإن كشفها لم يساعدنا على إحياء الثقافة، لأن ثقافة أخرى أقوى وأنسب قد توطنت، وتوطدت أركانها في الشعب.

وإذاً، فلم يبق أمامنا إلا حضارة قدماء المصريين — لا ثقافتهم — للتقليد والاقتباس؛ أعني الحضارة المادية لا الثقافة المعنوية؛ لأن الثقافة قد انتهت، وأصبحت تاريخية كما شرحت.

أما الحضارة فهي ماثلة في فن العمارة والبناء، وفي فن النحت والتصوير، وفي علم الكيمياء والتحنيط، وفي صناعة المعادن والذهب والحلي. في كل هذه المخلفات التي يجوز لأي أمة — كما يجوز لمصر — أن تقلدها متى وجدت وسيلة إلى ذلك.

يخيل إلي — أيها القارىء الكريم ـ أنا قد وصلنا إلى النتيجة، فأمامنا الآن

الحضارة المصرية الحديثة . وهي ولا شك تعتمد على ثقافة ، فإذا حللنا هذه الثقافة إلى عناصرها الثلاثة : اللغة والدين والأخلاق . وجدنا العنصر الأول عربياً ، والثاني إسلامياً ، والثالث إسلامياً عربيا ، فلم يبق إذاً أمامنا سبيل إلى الاختيار .

غير أن سائلا يقول : ولم البقاء على هذه الحال ؟ والثورات الفكرية والدينية والسياسية قديرة على تغيير هذه العناصر الثقافية ، واتخاذ عناصر أخرى لثقافة جديدة ، تكون نواة لحضارة جديدة . ولكن مهلا أيها السائل . احذر أن تخلط بين الحضارة والثقافة . فمن الممكن والجائز أن تختار من الحضارات ماتراه أصلح لروح العصر ، وطلبات الزمن ، على أن تصبغ هذه الحضارة بصبغة ثقافتك ، وعلى أن تنفث فيها من روح لغتك ودينك وخلقك ؛ لأن ضياع ثقافة أمة هو ضياع الأمة وحياتها وكيانها ، ولأن الأمة التي تتهاون في عنصر من عناصر ثقافتها تفقد ركنا من أركان حياتها وحيويتها ، وعاملا من عوامل قوميتها ، وليس معنى هذا أنها تتقهقر ماديا ؛ وإنما تهوى أدبيا ومعنويا .

إن الثقافة المشتركة هي أم العاطفة (Sentiment) فهي التي تربطني بالعراقي والشامي والحجازي والمغربي ، وهي التي تجعلني أشعر بالأنس حينما أهبط العراق أو فلسطين أو تونس . كما أنها تشعرني بالوحدة حينما أهبط لأول مرة مملكة أوروبية ، أو أي مملكة أخرى لا تربطنا بها رابطة الثقافة .

إن هذه العوامل الثقافية الثلاثة التي أشرت إليها هي التي تغذي العاطفة المتبادلة بين ممالك الشرق الأدنى ، وإضعاف أي عامل من هذه العوامل يتبعه إضعاف العاطفة المتبادلة ، والروابط المشتركة .

يقولون : إن تركيا قد كسبت وتقدمت حضارتها المادية ، منذ ثورتها الوطنية ، ومنذ أن حاولت القضاء على بعض عناصر الثقافة المشتركة بينها وبين الممالك العربية — أعني تغيير الحروف العربية إلى حروف لاتينية ، واستبدال نظام الاجتماع بنظام آخر — ولكني أعتقد أن تركيا قد خسرت خسارة كبرى هي عطف هذه الممالك العربية وحبها عليها ، ومعاونتها إياها في أوقات الشدة ، وإن تركيا لتشعر بهذه الوحدة ، وبأنها قد فقدت صديقاتها التي لا تجد الآن عنهن بديلا .

إن الشعوب الأوربية - أيها القارئ - لتتلبس بقوية عناصر الثقافة - كلها أو بعضها - بكل وسيلة، فتعمل على نشر لغتها وآدابها، ومذاهبها الدينية والخلقية؛ لتضمن بذلك أنصاراً وأصدقاء، ولتحتفظ ببسلامة كيانها: فألمانيا تعلن حقها الطبيعي في تكوين الإمبراطورية الجرمانية على أساس واحد هو أساس الثقافة المشتركة. وايرلندا تحاول التخلص من الحكم البريطاني، لا لأن حضارة إيرلندا غير حضارة انجلترا، بل لأن الثقافتين مختلفتان فلا يمكن تجانسهما، وإذا فلا يمكن تعاون الأمتين.

إن مركز مصر لجدير أن يستغل؛ لأنها تعتبر في طليعة شعوب الشرق الأدنى، ونظرة الممالك العربية إليها نظرة حب وعطف واحترام؛ فإن هي أرادت أن تبقى على هذا الحب والعطف والاحترام فلتبق إذاً على الثقافة العربية، التي تربطها بهذه الشعوب، ولتجعل الثقافة العربية أساساً لحضارتها الحديثة.

عبد العزيز أمين عبد المجيد